

تداولية الحوار في حديث عيسى بن هشام للمويلحي – حديث الافتراء على الوطن أنموذجا.-

*The deliberation of the dialogue in the hadith of Issa bin
Hisham Al-Muwailhi - the hadith of slandering the homeland as a
.- model*

أمينة سعد جلال *

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/05/06	تاريخ الإرسال: 2021/01/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

ألّف المويلحي خطابا إبداعيا متميزا ، أخذ هيئة المقامة شكلا ، وانسل من الحكاية مضمونا، و هو خطاب سردي يسافر الحوار بين أحضانه ، ويتمركز أبنية تواصلية لإحداث تفاعل بين الراوي و متلقيه.

و مقامة حديث الافتراء على الوطن ، خطاب مضمخ بالصور الحوارية هدانا إلى بناء مقالاتنا التي تستفهم عن تشكيلات الحوار و مقاصده ، وتتلمّس السياقات المعرفية المتجلية في النسق التداولي لهذه المقامة.

تسعى مقالاتنا إلى قراءة تحليلية لمقتضيات الحوارات الصادرة عن شخصيات هذه المقامة ، غاياتها و مقاصدها ، متجالياتها ومضموماتها ، وذلك تعويلا على مستخلصات الدرس التداولي ، خاصة فيما أصّله في موضوع الاستلزام الحوار.

الكلمات المفتاحية: التداولية، الخطاب السردي، الحوار، التواصل، المقامة.

Abstract:

Al-Muwailhi composed a distinguished creative speech, taking the body of the body in form, and slipping from the story content, and it is a narrative speech that travels dialogue between its arms, and centers communicative structures to create an interaction between the narrator and his recipient.

المؤلف المرسل: أمينة سعد جلال saaddjelelamina@gmail.com

* جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة saaddjelelamina@gmail.com

And the establishment of the talk of slandering the homeland, a speech infused with dialogic images guided us to the building of our article that inquires about the formations and purposes of the dialogue, and the cognitive contexts manifested in the deliberative system of this establishment.

Our article seeks an analytical reading of the requirements of the dialogues issued by the personalities of this shrine, its goals and objectives, its manifestations and implications, and this is based on the conclusions of the deliberative lesson, especially as it originates in the topic of dialogue entailment.

Key words: *deliberative, narrative discourse, dialogue, communication, setting.*

*** **

مقدمة:

إنّ الحوار هو الأصل الثابت في التعامل وإدارة العلاقات مع الآخرين، وهو المقتضى الذي تفرضه الحياة الإنسانية على هذه الأرض؛ إذ من غير الممكن تخيل الإنسان ذي الطابع الاجتماعي يعيش في صمت بين أبناء جلدته، وإلاّ كيف له أن يقضي حاجاته اليومية، ويعرب عن فكره، ويجد سبل العيش، ويضمن حقوقه وسطهم؟!.

والحوار بحسب ما تقدّم ليس أداة تعبيرية فقط؛ وإنّما هو آلية الفكر والحياة، وأنّ تواجده سبق التواجد الآدمي على الأرض، بل هو الجوهر التبليغي في التأسيس الوجودي.

وما يجدر التذكير به في هذا المقام أنّ دواعي الحوار متعدّد بتعدّد المسائل التي تتطلب منّا تواصلًا فاعلاً، يعتمد فيه المتخاطبون استخدامات لسانية للفهم والإفهام؛ الشيء الذي شجّع اللغويين اليوم على الاشتغال عليه في ظلّ اهتمامهم باللّسانيات التّداولية،

موضوعنا يلج قضايا تداولية الحوار؛ التي تبحث في تواصلية اللّغة بتسخير مجموعة من المعارف والقدرات من شأنها مساعدتنا في إنشاء عملية حوارية ناجحة توافق إحالتها التّداولية، والفضل في التأسيس لهذه التّداولية الجديدة يعود إلى العالم الأمريكي

بول غرايس (PAUL GRICE) الذي بوقوفه على بعض المبادئ الحوارية اكتشف أنّ أي عملية تواصلية يحكمها مبدأ عام هو مبدأ التعاون؛ "ذلك المبدأ الذي يركز على المرسل للتعبير عن قصده ، مع ضمانه قدرة المرسل إليه على تأويله وفهمه ضمن الموقف السياقي الوارد فيه"¹.

وعلى هذا الأساس ارتأينا إسقاط تداولية الحوار على نص سردي صعب تحديد جنسه ؛ إنّه نص محمد المويلحي 'حديث عيسى بن هشام' الذي في ظاهره يبدو مقامة ، لكنّه في مضمونه ووفق الفنيات المقدّم بها يتجاوزها إلى الرواية الحديثة .

وكما نعلم فإنّ البنية السردية سواء في المقامة أو في الرواية لا تستقيم دون حوار؛ ذلك أنّ الحوار أحد أعمدة تشكيلها يعوّل عليه في كشف مواقف وعواطف وأفكار الشخصيات التي يحفل بها الفن القصصي ، وإنّ اختيارنا وقع على هذه المدوّنة دون غيرها كون صعوبة تجنيسها جعلها أكثر إثارة عندنا لدراستها ، ونجح في استفزازنا لاستقراءها استقراء جديداً ، ودفعنا دفعا نحو تجريب الآليات التداولية الحديثة عليها ، عسانا نفلح في حلّ مغالقتها ، وكشف سرّ تفرّدها .

فعنوانها لوحده هدانا إلى معالجة نسقها الحوارية كونه محور بنائها ، فعبارة 'حديث عيسى بن هشام' تحمل في معناها تبادل الكلام مع الغير ؛ إذ الحديث لا يكون إلّا بوجود طرفيه وهما المتحدث والسامع له ، ولا تحصل فائدته إلّا بتداوله ، ومن هنا جاءت دراستنا موسومة بـ 'تداولية الحوار في حديث عيسى بن هشام للمويلحي -حديث الافتراء على الوطن أنموذجا-' محاولين الإجابة عن إشكالية رئيسة وهي : ما مدى نجاح الحوار في بناء خطاب سردي ذو أبعاد تداولية ؟.

وإنّ حل هذه الإشكالية ، ورغبتنا في التحقق من فعالية المنهج التداولي ، ولمس قدرته في إفهامنا مقاصد السارد ، وإعانتنا على تحديد وظائف الحوار في منجزه السردية ، تتطلب منا التطرّق إلى النقاط الموالية:

- تعريف الحوار لغة واصطلاحاً ، ثمّ بيان علاقته بالسرد و فيما يحتاجه السارد .

- تتبع صور تجليات الحوار في خطاب المويلحي وذلك بعد الإشارة إلى قيمته في الدراسات اللسانية الحديثة.
- الوقوف على أهم الوظائف والأغراض المحققة من تداولية الحوار في حديث عيسى بن هشام.

1. مفهوم الحوار:

1.1. لغة:

أصل الحوار من الحور؛ وهو الرجوع عن الشيء إلى الشيء، والحوار لغة: تراجع الكلام؛ إذ ورد في لسان العرب: "وهم يتحاورون؛ أي يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة"²، كما يقال: "المحاورة: المجاورة، وحاوره محاورة وحوارا: جابه وجادله"³.

وهكذا فإن الدلالة اللغوية لكلمة حوار رست على التجاوب ومراجعة الكلام.

2.1.. اصطلاحا:

هو "نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء، والبعد عن الخصومة والغضب"⁴

كما يمكن تعريفه بأنه مراجعة الحديث بين طرفين، ينتقل من الأول إلى الثاني ثم يعود إلى الأول وهكذا، دون عنف أو انفصال سلبي وفق ضوابط معينة لأغراض مختلفة شريطة أن يكون الحديث متأسما بوحدة موضوعية.

إذن المعنى الاصطلاحي للحوار يتقاطع مع معناه اللغوي إن لم نقل يطابقه.

والجدير بالتنويه أنّ لفظ الحوار ورد في القرآن الكريم في ثلاث مواضع هي: في قوله تعالى: "وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا"⁵، وفي قوله

عَزَّوَجَلَّ ، " قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا" ⁶ ، وفي قوله أيضا : " وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" ⁷ .

والقرآن الكريم في مجمله أفرد للحوار في أشكاله المتعددة حيّزا لا يستهان به ؛ إذ لا تكاد تخلو منه سورة من سوره ، فقد ناهزت المواقف الحوارية فيها مائة وعشرين موقفا في نحو ألف آية كريمة ؛ أي ما يعادل سدس أي الكتاب ، هذا عدا "الآيات الخطابية المبدوءة بـ : "يا أيها الناس " ، و "يا أهل الكتاب" ، و "يا أيها الذين آمنوا" ، وغيرها من آيات المسائلة والمعالجة التي لا يعقها جواب ، وآيات الإخبار التي لا تتضمن مراجعة في الكلام ، وإن كانت جميعا ذات طبيعة حوارية" ⁸ ؛ ومرد ذلك أنّ ديننا الحنيف يحرص على الدعوة إلى التعايش ونصرة الحق اللذان لن يتحققا إلّا بانتهاج الحوار البناء .

وإنّ اهتمام القرآن البالغ بهذه الآلية – آلية الحوار- هو أكبر دليل على نجاعتها في التصوير والتصويب، والإفهام والتوضيح، والدفاع عن النفس وتفنيد الشبهة المثارة حولها، وكشف الخبايا.

2. علاقة الحوار بالسرد :

يعدّ الحوار من أهم الوسائل التي يحتاجها السرد في بنائه ؛ ذلك أنّه "محور يستقطب حوله فكرة القصة ومضمونها العميق، ويمكن أن يكون هدفا فنيا كبيرا ؛ كونه معيارا نفسيا دقيقا يستطيع أن يصنّف نفسيات الشخصيات الفنية بذكاء وحنق بالإضافة إلى قدرته على تطويرها" ⁹ .

فهو تعبير فكري وفني معا يلجأ إليه السارد للكشف عن فكرته بطريقة مثيرة من جهة ، ولإضفاء الواقعية على عالمه المتخيّل من جهة أخرى .

وتوظيف الحوار في السرد كان ولا يزال سواء في الأشكال القصصية القديمة أو الحديثة ضرورة حتمية تستدعيها الذات المبدعة والذوات الممثلة في عالمها الإبداعي ؛ للتعريف بها وإطلاعنا عمّا يختلجها ويدور ببالها. والحوار في بعض الأحيان يكسر رتابة السرد ، ويضفي عليه حيوية فيجعله بمثابة العرض المسرحي، فيشد المتلقى إليه ، ويوهمه

بواقعية أحداثه وحركية شخصياته ، كما ينيره بتاريخية العمل الأدبي ، لذا في "أحيان أخرى نجد الحوار يقوم مقام الوصف والسرد معا ، إذ هناك قصص يطغى عليها الحوار ، فيبلور أماننا الشخصية والموقف ولا يحتاج إلى تعليق"¹⁰ ، بل إنّ النسق الدرامي في مرّات عدّة يجعل الحوار مطوّرا للحدث ليس فقط ناقلا له .

3.الحوار في الدراسات اللّسانية الحديثة :

لأنّ التّداولية كعلم لساني حديث تقوم على دراسة استعمال اللّغة ، فإنّ اهتمامها ينصب على دراسة العلاقة بين المتكلم والسماع بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملايسات وشروط مختلفة ، حيث "تدرس كلّ العلاقات بين المنظوقات اللّغوية ، وعمليات الاتّصال والتفاعل ، وتستند إلى علم اللّغة النفسي وعلم اللّغة الاجتماعي ، وتعالج قيود صلاحية منظوقات لغوية وقواعدها بالنسبة إلى السياق"¹¹ .

وهكذا كان إدراج الحوار في الدراسة اللّسانية الحديثة لازما بشكل أو بآخر؛ لأنّه جزء لا يتجزأ من موضوعها ، فلسانيات القرن العشرين التي ساوت بين لسانيات اللّغة ولسانيات الكلام ، واهتمت بالخطاب على أنّه : " إنتاج لغوي منظور إليه في علاقته لظروفه المقامية ، وبالوظيفة التّواصلية التي يؤدّيها في هذه الظروف"¹² ، ساهمت في انبثاق لسانيات جديدة يمكن تسميتها بلسانيات الحوار ، و هي ذاتها ما يصطلح عليها بتداولية الحوار أو التّداولية الحوارية .

وفي هذا الشأن يقول الجيلالي دلاش : " إنّ تخصص لساني يدرس كيفية استخدام النّاس الأدلة اللّغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم ، كما يُعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الأحاديث"¹³ ، ثمّ يردف ذلك بإجمال تعريفها – التّداولية الحوارية – بقوله : "هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية"¹⁴ ؛ وعدّت كذلك لأنّها تهتم بالأقطاب الأربعة للعملية التّواصلية وهي : المتكلم ، المتلقي ، الرسالة التي بينهما ، السياق المحيط بهم .

وإنّ ظهور هذه التّداولية الجديدة وغلّت عملية البحث في الحوار ، وساهمت في توليد نظريات عدّة بخصوصه ، تجتهد في إرساء ضوابطه ، ووضع قواعده ومبادئه من خلال دراسات مكثفة في مقدمتها دراسة الفيلسوف غرايس الذي يرى أنّ النّاس أثناء تخاطبهم

إما أنّهم يقولون ما يقصدون، أو يكونون يقصدون أكثر ممّا يقولون ، وكثيرا ما يقصدون عكس ما يقولون ، وهو ما ألهمه قضية الاستلزام الحوارية (L'implication conversationnelle).

فقد تلبّاه غرايس أنّ بعض الجمل في بعض السياقات تدل على معنى غير المعنى الذي يوحي به محتواها الحرفي ، والمثال الآتي خير برهان على ذلك :

" يسأل الأستاذ (أ) الأستاذ (ب) عن توجّه الطالب (ج) فيقول: هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟ ، فيجيب الأستاذ (ب) : إنّ الطالب (ج) لاعب كرة قدم ممتاز "15 .

فإذا تأملنا إجابة الأستاذ (ب) وجدنا أنّها تدل على معنيين اثنين في الوقت نفسه أحدهما حرفي والآخر مستلزم، فالأول أنّ الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، والثاني أنّ الطالب ذاته ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة.

ولوصف هذه الظاهرة يقترح غرايس سنة 1975م نظريته المحادثية " التي تنص على أنّ التّواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام – سبق وأشرنا إليه في المقدمة -، وهو مبدأ التعاون وبمسلمات حوارية "16 .

والتعاون عنده يعني تلبية المتكلم المطلوب منه بحسب الكيفية التي جرت بها المحادثة والوجه الذي اتخذته، أما مقتضاه فهو تعاون المتحاورين على الوصول إلى الغرض المطلوب من دخولهما في التخاطب أو التحاور، وفرّعه إلى مجموعة من القواعد أطلق عليها اسم القواعد التخاطبية وهي:

" قاعدتا الكم وصيغتهما:

- لتكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته .
- لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب .

قاعدتا كيف وصيغتهما :

- لا تقل ما تعلم كذبه .
- لا تقل ما ليست لك عليه بيّنة .

قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال وصيغتها:

- ليناسب مقالك مقامك .

قاعدة الصيغة وصيغتها :

- لتحترز من الالتباس والإجمال "17.

وإنّ عمل غرايس هذا فتح أمام اللّسانيين طريق الاجتهاد في صوغ مبادئ أخرى تكملّ فعل مبدأ التعاون، فهذه روبين لاكوف (ROBIN LAKOFF) في مقالها الشهيرة : ' منطق التأدب ' تضيف مبدأ جديدا عدّ ثاني مبادئ المحادثة أو المحاوره ؛إنّه مبدأ التأدب الذي يفرض على المتحاورين احترام بعضهم من خلال الالتزام بقواعده وهي:

" قاعدة التعفف وصيغتها : لا تفرض نفسك على المحاور، وقاعدة التخيير وصيغتها: لتجعل المحاور يتخذ قراراته بنفسه ودع خياراته مفتوحة ، وقاعدة التودد وصيغتها: لتظهر الودّ إلى المحاور "18، وهي قواعد تراعي الجانب التهذيبي من الحوار عكس القواعد المتفرّعة عن مبدأ التعاون ، فهي تهتم بالجانب التبليغي منه فقط.

وكل من: بنلوب براون وستيف ليفنسون (BROUN PENELOPE AND LEVINSON STEPHEN.C) في دراستهما المشتركة ' الكليات في الاستعمال اللّغوي : ظاهرة التأدب ' اكتشفا مبدأ ثالثا، هو مبدأ التواجه الذي يرتكز على عاملين أساسيين هما :

أ. قيمة الوجه الاجتماعية: وهي تفرض على المرسل أن يصون وجه غيره ، صيانة لوجهه هو ، وتحقيقا لاحترام والتعاون بينهما.

ب. نسبة تهديد الوجه: بما أنّ هناك بعض الأفعال اللّغوية التي تتعارض وإرادات طرفي الحوار فلا بد من اتباع استراتيجيات تحاورية تقلل من تهديدهما ، وهي في جملتها

خمسة : " الاستراتيجيات الصريحة ، واستراتيجيات التأدب الإيجابي ، واستراتيجيات التأدب السلبي ، واستراتيجيات التلميح ، واستراتيجيات الصمت " ¹⁹.

وجيوفري ليش (GEOFFREY LEECH) في كتابه 'مبادئ التّداوليات ' توصّل إلى مبدأ رابع يرقى بالعملية التحوارية ؛ إنّه مبدأ التأدب الأقصى ، الذي ينص على الإكثار من الكلام المؤدّب وتقليل ما دونه ، وفَرَعَ منه عدّة قواعد منها : " قاعدة اللباقة ، وقاعدة السخاء ، وقاعدة الاستحسان ، وقاعدة التواضع ، وقاعدة الاتّفاق ، وقاعدة التعاطف " ²⁰.

وفي الأخير نقول إنّ هذه المبادئ والقواعد على اختلاف المبررات التي أوجدها تظلّ مجرد محاولات لتأسيس وتأصيل النظرية التحوارية.

4. الحوار وتجلياته في حديث عيسى بن هشام:

للحوار أشكال مختلفة تختلف باختلاف منظور واستعمال المتحاورين له ، غير أنّ المشهور منها اثنان: الحوار الداخلي (Monologue) والحوار الخارجي (Dialogue)؛ إذ الأول لا يتطلب أكثر من شخص واحد يتمثّل نفسه المتكلم والمتلقي في الوقت ذاته؛ أين يجري الحوار في "باطن هذه الشخصية، وبصوت غير مسموع" ²¹ ، والثاني يستوجب شخصين أو أكثر ، يتبادلان أو يتبادلون الحديث مع احترام مبدأ التناوب فيه ، والالتزام بموضوعه.

وكما هو معلوم فالحوار الداخلي أسبق زمنا عن الحوار الخارجي؛ الشيء الذي جعلنا نذكرهما بهذا الترتيب ، وأيّما كان شكل الحوار فلا بد له من أسس تحكمه ، وتوجّه مساره تبعاً للغرض الذي أقيم من أجله ، وهذا ما أكدت عليه الأطروحات التّداولية التي سبق وأشرنا إليها.

ونحن في هذا القسم من البحث سنحاول اكتشاف الصور الحوارية التي انتقاها المويلحي لحديثه ، وإدراك دواعي توظيفها ، وإجلاء أبعادها التداولية والجمالية ، وهذا من خلال تناول النموذج الحديثي المختار للتطبيق والمتمثل في نص 'الافتراء على الوطن' ، والذي رأينا أنّه ملخّص لجميع أحاديث المويلحي الواردة في عمله الأدبي المسمّى 'حديث عيسى بن هشام'؛ إذ هو نص يلخص حقيقة وضع المجتمع المصري أواخر القرن التاسع عشر وبداية

القرن العشرين الملايين، وهو في الحقيقة وضع لا يقتصر فقط على مصر آنذاك بل تشاركها فيه أغلب مجتمعاتنا العربية، فهو وضع متأزم ومنحط من جميع النواحي (الأخلاقية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية، الثقافية،.... إلخ)، حاول المويلحي من خلال شرح هذا الوضع وتبيين مسبباته إيجاد حل للنهوض به، ودفع المصريين خاصة والعرب عامة للإصلاح.

فنص 'الافتراء على الوطن' هو ترجمة لمعاناة الأمة المصرية، ولصرختها الحبيسة، ولعجزها على مداواة حالها؛ إنه يشخص عللها، ويرصد تقهقراتها، ويوضح حقيقة مأساتها التي يردّها المويلحي إلى انصهار الأنا المصرية مع غربية اللآخر الذي غزاها وعدم قدرتها على صنع ذاتية مستقلة، عربية أصيلة، لها عاداتها وتقاليدها وقيمها الخاصة بها.

فالكينونة المصرية بديانتها الإسلامية، وبيئتها العربية، وتاريخها العريق، لها من المقومات ما يحفظ خصوصيتها، ويجعلها متبعة لا تابعة، غير أنّ تخلي معظم أهلها عن تلك المقومات وانسلاخهم من أصلهم هو الذي آل بهم هذا المآل، وغير حالهم من الأحسن إلى الأسوأ، فأضحوا يتنصّلون من دينهم وأعرافهم للحاق بركب التحضر المزيف، ويتنازلون عن أخلاقهم لإرضاء أنفسهم الأثمارة بالسوء، ويبيعون ضمائرهم لشراء جشعهم وملاّ جيوبهم، زاهدين عن سبل الهداية ودروب الإعمار والإثمار.

فالمويلحي بعدما عرض في نصوص سبقت هذا النص حال مصر في جميع القطاعات وهو مقيم فيها، أراد أن يعرف صورتها في عيون الآخرين، فجعل راويه عيسى بن هشام وبطله أحمد المنيكلي يسافران مع صديق لهما في رحلة تجوّلية تفقّدية إلى باريس عساهم يجدوا ما يهوّن عليهم حال أمتهم المتدهور، وبالصدفة وجدوا هناك معرضاً يروّج للثقافة والمنتجات المصرية، فدخلوه لكنّه زادهم حسرة على بلادهم.

وقد توسّل المويلحي في سرد تفاصيل أحداث هذا النص وسيلة فاعلة رأى أنّها الأقدر على الإبلاغ والتصوير؛ إنّها وسيلة الحوار التي تربّعت على عرشه، وكانت العمود الفقري الذي يستند إليه سرده، فقد تمظهر عبره بتمظهرات عدّة، فوجدنا الحوارات متنوّعة ومتولدة عن بعضها البعض، فمنها الحوارات الداخلية والخارجية، ومنها الحوارات

المنفردة والحوارات الثنائية والجماعية، وحتى القائمتين بها فإن أدوارهم فيها غير ثابتة ؛ إذ المتكلم يتحول إلى متلق، والمتلقي إلى متكلم، وفق ما يقتضيه السياق.

والجدير بالذكر أيضا أن الحوارات في مجملها تنضوي تحت قسمين أساسين هما: القسم الرئيسي والقسم الفرعي، فالحوارات الرئيسية حصرها الكاتب في المتكلم الواحد، وهو عيسى بن هشام سارد الأحداث، ومتلق واحد وهو قارئها المفترض ، ووزعها توزيعا منظما يحفظ حبكة عمله السردى ، فأوجدها في بدايته وسطه وآخره ، صاغها بصيغة " قال عيسى بن هشام" ²² المكررة ثلاث مرّات عبر كل النص، والموجهة لقارئه المفترض فقط ، بينما الحوارات الفرعية حصرها في الشخصيات الفنية التي استحضرها خياله، فتداولت عليها، و أخذت النصيب الأكبر من إبداعه، لكن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام: هل هذه الحوارات تقيّدت بقواعد مبادئ المحاورّة التي سبق وأشرنا إليها، وهل أدّت أغراض الرسالة التي حقّها المويلحي إيّاها؟.

للإجابة عن هذين الطرحين علينا استحضار بعضها بالفحص والاختبار.

ففي قول عيسى بن هشام: "دخلنا... نستكشف الأثر و نستشف الخبر" ²³، نجد أنّ هذا القول يضمّر بداخله حوارا استكشافيا يتوقع السامع أطرافه ويتخيّل محتواه؛ إنّه حوار ضمّني شارك في أدائه عيسى بن هشام وصديقيه الحكيم والباشا أحمد المنيكلي مع المشاركين في المعرض والمسيرين له؛ لأنّ توظيف عيسى بن هشام للفعلين (نستكشف) و (نستشف) يوحيان بذلك ؛ مما يفهم أنّ الحديث هنا التزم بمبدأ التعاون المقتضي تعاون كلّ من السامع والمتكلم على فهم المقصود وفق السياق الوارد فيه؛ الشيء الذي يؤهلنا للقول: أنّ هناك افتراض مسبق بينهما ساعدهما على تجاوز العائق المفهومي بالانتقال من السياق اللّغوي الموضوعي إلى السياق الاستعمالي التواصلّي، وهو "الشرط الأساس في تحقيق التماسك العضوي للخطاب" ²⁴.

وفي قوله في موضع ثان: " تلقانا رجل... مشغول اللسان بالترحيب واليد بالتسبيح... فهنأنا بالسلامة، وبالغ في الحفاوة والكرامة، وتقدّم بنا إلى ساحة من ساحات اللهو واللعب فولّينا نستر وجوهنا بأيدينا خجلا، وتمنينا أن لا ننسب إلى بلادنا أصلا لنخلص من وصمة

هذا العار"²⁵، نلاحظ وجود تناقض بين ما توجي به المتواليات اللغوية الأولى للحديث والسياق العام الذي وردت فيه، فعيسى بن هشام وصديقيه مندهشون من المشهد الذي هم أمامه أو بالأصح من النفاق الذي حضروه، فكيف الذي قابلهم بالتسبيح هو ذاته الذي يدخلهم مكان المجون، ويجعلهم يخلجون من الانتساب إلى بلدهم.

ففي هذا الحديث خرق لقاعدتي الملاءمة والتأدب، فبداية الموقف الحوارى لا تطابق أو تناسب نهايته، ناهيك أنّ التأدب الإيجابى الذى التزم به الرجل مع عيسى بن هشام وصديقيه ، والذي جسده بالترحيب بهم بحفاوة سرعان ما انعكس عليهم سلبا وهددهم بالخزي والعار؛ لما وجدوا أنفسهم فى مكان لا يمت للأخلاق بصلة، فالجانب التهذيبي بمعناه الحقيقى غير موجود، كما أنّ المويلحى لم يعتمد فى هذا المقطع الحوارى على الأفعال الملفوظة فقط بل زوّدها بأفعال أخرى غير ملفوظة مثل التسبيح ، وستر الوجه باليد ، والتمنى ، متبعا فى ذلك استراتيجيتين من استراتيجيات التفاوض إتهما الاستراتيجية الصريحة والاستراتيجية التلميحية :ذلك أنّ النشاط الخطابى يتشابك باستمرار بين المقول وغير المقول"²⁶.

وفى قوله على لسان راويه: " عارضنا أحد المروّجين له واستحلفنا ألا نتركه....فطاوعناه "²⁷، نلمس اختراقه لأحد مبادئ المحادثة، وهو مبدأ التخيير وترك القرار للسامع ؛لأن ذلك المروّج للمعرض استعمل وسيلة ضغط على محاوره من باب التأثير على قراره وإخضاعه لرغبته آل وهى وسيلة القسم، فما كان من المحاور إلا الإذعان والمطاعة.

أما فى المقطع الموالى فقد استنجد بوسائط تأثيرية أخرى غير القسم عملت بدورها على إقناع سامعها فى تغيير قراره:

" -الصديق الحكيم: لم هذا التسرع؟ أما علمتم بأنّ المعرض ينقسم إلى قسمين: قسم الصناعات والآثار، وقسم المشاهد والمرائى؟، وقد رأيتم القسم الثانى فدعوه إلى سوء أدبه، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه علّنا نجد فيه ما يصرف عنكم الهم والكدر.

- الباشا: ما أظنّ هذا القسم إلا عنوانا للقسم الآخر، ومن أساء الاختيار في قسم المشاهدات فجدير به ألا يحسن الاختيار في قسم الصناعات.

- الصديق الحكيم: لقد أعى الطمع في الربح مثل هؤلاء التجار...

- عيسى بن هشام: انثنينا إلى القسم الأول من المعرض المصري مطاوعة لرأي صاحبنا²⁸.

نلاحظ في هذا المشهد التواصلّي أنّ المويلحي تسلّح بأدوات إقناعية أكثر نجاعة في التأثير وهي على التوالي: الاستفهام المجازي، الطلب الذي يفيد الوعظ، النفي، الترجي، حملها كلام الحكيم الموكل إليه مهمة إقناع الباشا بدخول القسم الأول من المعرض، وفعلا نجح بفضلها في تأدية مهمته، كما دُعم الحوار في هذا المثال بالحجج، والاستلزمات الحوارية، والاستدلالات الذهنية، خدمة للسياق الموضوعية فيه، والتزاما بقاعدة مقتضى الحال التي تستوجب كما ذكرنا سابقا مناسبة المقال للمقام.

وفي قول عيسى بن هشام أثناء تواجده في القسم الأول من المعرض: "استخبرنا أهذه كلّها آثار مصر والمصريين، قالوا: نعم، ويزيد عليها معروضات المصنوعات والمزروعات"²⁹.

المويلحي في هذا المثال تمرّد على قيود قاعدة الكم بغية تنفيذ مشروعه التبليغي بطريقته الخاصة؛ لأنّه كان بإمكانه أن يأتي بإجابة على قدر السؤال المطروح، فيقول (نعم) أو (لا)، لكنّه لم يفعل، وأصرّ على منحنا إجابة فيما نوع من المراوغة، توهمنا في الشطر الأول منها بشيء ثم يستدركه في الشطر الثاني منها.

وفي قوله: "وإذا برجل آخر... حوله صبيان... يقرؤهم آيات الكتاب... يهددهم بها... ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره... تبين لنا أنّه... اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانه ليمثلوا به هذا المنظر... فكان إنكارنا لأمر المسلم المتعبّد أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحي المتنبّد"³⁰، نجد مكاشفة الحقيقة تمّت بتقنية المساءلة، وانبى عليها إنجاز الفعل وهو الإنكار واللّوم، فالمويلحي بهذا الشكل يكون قد حقق قاعدة توجيه الحوار نحو الممارسة والإنجاز بمقتضى أنّ كلّ حوار ينتظر منه تفاعل وردّ فعل كما يقول الشاطبي: "مقصود الكلام ليس نفس التعقل، بل الانقياد إلى الأفعال وتقويم السلوك"³¹.

وآخر ما نقوله أنّ هذه العينات الحوارية المستشهد بها على اختلاف تمظهرها أبانت عن ملامح المشروع الإصلاحي الذي يحمله المويلحي لقارئه؛ فالإصلاح عنده يقوم على المعاينة أولاً؛ لذا كان يضمن حواراته وسائل تأثير تؤثر في الأبطال، وتجبرهم على ملاسة الواقع المأسوي، ثم يدفعهم دفعا إلى محاولة تغييره ولو بالقول أو الفعل البسيطين، ومن هنا نفهم أنّ تمرده على بعض القواعد التنظيمية المهيكل للحوار في بعض حديثه المنجز ما هو إلا إعراب عن تمرده على الأوضاع السائدة في عصره.

5. الخاتمة :

بعد إشارتنا لآخر ما أفرزته اللسانيات التداوليّة من اقتراحات في نظرية المحادثة والمحاورة، ومحاولة استغلال القواعد والمبادئ التأطيرية لها في حديث عيسى بن هشام خرجنا بالنتائج الآتية:

- عملية التواصل بشكل عام لا تهض بها القدرة اللغوية الصرفة لوحدها بل تساهم فيها قدرات أخرى منطقية ومعرفية وسياقية تستلزمها استعمالية اللغة.

- عملية التحوار جزء لا يتجزأ من عملية التواصل تخضع لمبدأ عام يؤطرها؛ إنّه مبدأ التعاون الغرايبي الذي تنضوي تحته مبادئ واستراتيجيات تخاطبية تداولية تعين على تحديد أبعاد تلك العملية التحوارية.

- لكل عملية حوارية هندستها وبنائها الخاص.

- الحوار في العمل الأدبي يساهم بشكل كبير في تحويله من التلقي إلى إعادة إنتاج.

- المويلحي صنف حوارات حديثه إلى رئيسة أذاها راويه والقارئ المفترض حافظ من خلالها على إدارة حديثه العام وهيكله وفق قناعاته وأغراضه الإصلاحية، وأخرى فرعية أدتها الشخصيات المستوحاة من خياله فصوّر من خلالها واقع مصر الميرير أواخر القرن التاسع عشر ميلادي.

- تقنية الحوار التي توسّلها المويلحي ساهمت بشكل واضح في تحديد الأبعاد التداولية لحديثه مع صنع حبكته وتنمية أحداثه من خلال إبرازها الصراع القائم بين شخصياته الواعية المتمردة على الوضع الأليم لمصر، والشخصيات الخاملة الراضخة للأمر الواقع.

وفي نهاية رحلتنا البحثية هذه نأمل أن تتوجه الدراسات النقدية بنوعها الغربية والعربية إلى الاتجاه التداولي الحوارية جادا يوسّع آفاقه ويحصر إجراءاته ويقنّن قواعده، لما له من قدرة على ملازمة اللغة في مختلف أدائها، وللذين يحصرون الدراسة التداولية في دراسة الكلام العادي ولغة التواصل اليومي بين الأفراد نقول إنّ يد التداولية تطول أكثر من ذلك فقط لا بد من تكثيف فرصة التجريب.

الهوامش :

- 1 عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب – مقارنة لغوية تداولية-، دار الكتاب الجديد ، ليبيا ، ط1، 2004، م ، ص 96.
- 2 ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري : لسان العرب، دار صادر، بيروت/ لبنان، دط ، دت ، ج 5 ، ص 297 ، مادة (حور) .
- 3 إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت / لبنان، ط3، 1404هـ، ج 2 ، ص 640.
- 4 صالح بن عبد الله : أصول الحوار وأدابه في الإسلام، دار الخضير للنشر والتوزيع ، المدينة المنورة ، دط ، 2007 م، ص30.
- 5 سورة الكهف، الآية 34.
- 6 سورة الكهف، الآية 37.
- 7 سورة المجادلة، الآية 01.
- 8 عبد الرحمن ساغرو: آداب الحوار في القرآن الكريم (سورة مريم نموذجاً)، ردمك ، دط ، دت ، نسخة إلكترونية، ص 04.
- 9 طه عبد الفتاح مقلد: الحوار في القصة المسرحية والإذاعة والتلفزيون ، مكتبة الشباب، مصر، د ط ، 1975م، ص 19.
- 10 نجم عبد الله كاظم: مشكلة الحوار في الرواية العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، دط ، دت ، ص 77 و 78.

- 11 خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية - محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم- ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012 م، ص57.
- 12 أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية - بنية الخطاب من الجملة إلى النص- ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، المغرب ، ط1، 2001 م، ص17.
- 13 الجيلالي دلاش : مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها ، ترجمة محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1996 م ، ص 01.
- 14 المرجع نفسه، ص ن.
- 15 أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية -مدخل نظري -، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت /لبنان ، ط2، 2010م، ص 26.
- 16 حافظ إسماعيل علوي: التداوليات – علم استعمال اللغة-، عالم الكتب الحديثة، الأردن ، ط1 ، 2001م ، ص 45.
- 17 طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي، بيروت /لبنان ، ط1 ، 1998 م ، ص 238.
- 18 عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 100.
- 19 المرجع السابق، ص 243.
- 20 المرجع السابق، ص 105.
- 21 طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 247.
- 22 محمد المولحي: حديث عيسى بن هشام ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة /الجزائر، دط، 2007 م، ص469 و 473 و 476.
- 23 المرجع نفسه ، ص 470 .
- 24 عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2003 م ، ص 115.
- 25 المرجع السابق ، ص 470 و 471 .
- 26 محمد طلحة: تداولية الخطاب السردى – دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي-، عالم الكتاب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2012 م ، ص 146
- 27 المرجع السابق ، ص 475.
- 28 المرجع نفسه ، ص 472 و 473
- 29 المرجع نفسه ، ص 474
- 30 المرجع نفسه ، ص 473 و 474
- 31 أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، دارالمعرفة، بيروت / لبنان، دط، دت، ج 3، ص 53.